جماعات الأطفال

بقلم ماهر كامل
مدرس الفلسفة بمدرسة المنصورة الثانوية

لايكوِّن الأطفال فى السنتين الأوليين جماعات بالمعنى الصحيح للكلمة لأن الحياة مع آخرين تتطلب مراناً ودرجة من النمو وخبرة خاصة ، وبدون هذه الخبرة يكون من الصعب على الطفل أن يخضع للقوانين الاجتماعية التى تفرضها الجماعة .

وتختلف جماعات الأطفال باختلاف مراحل نموهم . بل إن مفهوم كلمة « نحن » تختلف فى ذهن الطفل حسب درجة نموه إذ أنها ترمز فى كل مرحلة من مراحل النمو إلى عدد الجماعة التى يتحد الفرد معها ونوع هذه الجماعة وأغراضها .

فى المرحلة من ٣ — ٥ سنوات يطلق الطفل كلمة « نحن » على أفراد الأسرة . وفى المرحلة من ٥ — ٧ تستخدم كلمة نحن على « أنا وطفل آخر » أو على الأكثر فى بعض الظروف على ثلاثة أفراد . وكلما نما الطفل تطلق كلمة « نحن » على عدد أكبر من الأفراد الذين يلعب معهم . فعند طفل الحادية عشرة تطلق كلمة « نحن » على جماعة من ستة أو ثمانية أفراد من جنس واحد «ذكور أو إناث» وسن متقاربة فى حين تطلق كلمة « هم » على العصابة أو الجماعة المنافسة . وعند الكبار يقصد بكلمة « نحن » كل جماعة ينتمون إلى عمل متشابه أو ينتسبون إلى دراسات واحدة .

من هذا يتبين لنا أن تكوين الجماعات إنما يتوقف على درجة النمو الاجتماعى ولهذا ينبغى علينا أن نتتبع التطور الاجتماعى للأطفال حتى نقف على نظام الجماعات وتطورها .

اتفق جميع العلماء الملاحظين أن الطفل فى الشهر الأول من عمره لا يمكن اعتباره حيواناً اجتماعياً اللهم إلا بالقوة Potentially ثم يبدأ الاتصال الاجتماعى تدريجاً . ففى السنة الأولى نلاحظ على الطفل نوعين من السلوك الاجتماعى

هما : (١) لذة مرافقة الآخرين . (٢) محاولة ترمى إلى استمرار الاتصال الاجتماعى .

فلذة الطفل من مصاحبة مجتمع من الكبار لا يظهر من سلوكه الاجتماعى عند الضحك أو الابتسام فحسب بل أيضاً من طريقته التى تمثل فرض نفسه عليهم . ونستطيع أن نتبين هذا الشعور فى وضوح إذا حاولنا أن نحول بين الطفل و بين هذا الاتصال الاجتماعى فسرعان ما تجده يصرخ ويلح فى قوة وفى غضب ظاهر . وحتى إذا كان الطفل فى بدء مرحلة النوم نجده يستيقظ ويصرخ ويأتى ببعض الحركات الجسمية الانفعالية بالرغم من أن كل أسباب الراحة تكون متوفرة لديه ما عدا هذا الاتصال الاجتماعى أو المرافقة . وتثبت التجارب أن الأفضل فى هذه الحالة أن يترك الطفل يصرخ كيفما شاء حتى يعلم أن هذه طريقة فاسدة لاتؤدى به للحصول على ما يريد ذلك أن الطفل إذ يصرخ إنما هو يجرب ويختبر . وإذاً فهو لن يتمادى فى هذه التجربة إذا ما عولجت بعناية من الكبار . أما إذا تكونت لدى الطفل عادة الصراخ للمرافقة فذلك يرجع إلى عدم العناية بتربيته .

ويلاحظ أنه فى سن أربعة أو خمسة أشهر لا يوجد أى تداخل بين الأطفال بعضهم البعض ولا يهتم الواحد بالآخر البتة حتى لو وضعوا فى أماكن متجاورة جنباً لجنب . وأقصى ما يحدث منهم هو أنهم ينظرون إلى بعضهم البعض أو يبتسمون فى فترات قصيرة متراوحة . ولكن لا يحاول أحدهم أن يقوم بالمقدمات اللازمة لقيام علاقة اجتماعية وثيقة . وعلى العموم فى أثناء السنة الأولى كلها تكون معظم علاقات الطفل الاجتماعية مع الكبار . . . على أنه عند نهاية السنة الأولى تظهر بعض اتصالات وتكيفات بين الأطفال بعضهم و بعض .

وتلفت شارلوت بولر Ch Bühler نظرنا إلى أن هناك فرقاً كبيراً بين طفلين يلعب كل منهما منفرداً رغم أنهما جنباً لجنب و بين طفلين يلعبان سوياً بمعنى الكلمة فالحالة الأخيرة وحدها تمثل نشأة الميول الاجتماعية . كما أنه يجب أن نفرق بين هذين السلوكين و بين سلوك طفلين يعملان نحو تحقيق قصد أو غاية مشتركة ويؤثر كل منهما الآخر و بينهما تفاهم متبادل وتنظيم للتداخل وليس مجرد اشتراك فى اللعب

واشتراك فى النتائج . وليس لدى الأطفال الذين هم فى السنة الأولى من عمرهم مثل هذه الصلات الاجتماعية المعقدة . وإنما هى علاقات قصيرة المدى ، وعلى أى حال فهى تلقى ضوءاً على نشأة جماعات الأطفال .

وفى المؤتمر الدولى التاسع لعلم النفس الذى عقد فى جامعة ييل (Yale) سنة ١٩٢٩ قسمت شارلوت بولر Charlotte Bühler السلوك الاجتماعى للأطفال فى أواخر السنة الأولى إلى ثلاثة أنواع من الاتجاهات يمكن اعتبارها كمميزات وصفات عامة للشخصية .

(١) الطفل الأعمى الاجتماعى : وهذا الطفل لايأبه لوجود طفل أو أطفال آخرين معه ويتصرف فى وجودهم كما لو كان بمفرده ولا يظهر أى انفعال أو انتباه إلى حركات الآخرين .

(٢) الطفل المعتمد على المجتمع : وهو على عكس الطفل السابق يتأثر كل التأثر بوجود الآخرين فى بيئته وبنشاطهم . . . وهو إما أن يخاف من الطفل الآخر فيحاكيه ويطيعه ، وإما أن يضايق الطفل الآخر ويأخذ اللعبة التى فى يده وهو يبتسم ابتسامة المنتصر حينما يتغلب عليه أو يغضب ويحقد إذا انتصر عليه الآخر .

(٣) الطفل المستقل عن المجتمع : وهذا الاتجاه يختلف عن الاتجاهين السابقين فهذا ولو أنه شاعر بوجود الآخرين إلى أنه ليس معتمداً عليهم فهو لا يخاف وجودهم ولا يهابهم ولكنه مع ذلك لا يمانع فى أن يشترك مع طفل آخر إذا اقتضى الحال وقد يعاون الطفل الآخر ويواسيه ويشجعه ولكنه مع ذلك يبقى مستقلا فى حركاته

وأكرر أننا إذا ما تحدثنا عن السلوك الاجتماعى للطفل فى السنة الأولى من الحياة فإنما نعنى أن العلاقات بين الأطفال فى هذه السن تكون قصيرة المدى جداً ونادرة الحدوث وتقتصر على فردين فقط . فإذا ما اجتمع عدة أطفال للعب فإن العلاقات والصلات لا تظهر بينهم جميعاً على أنهم جماعة بمعنى الكلمة ، بل بين عدة مجموعات صغيرة من الأطفال وكل مجموعة منها تتكون من طفلين . وحتى فى هذه الحالة فإننا نجد أن كل طفل إنما يوجه نشاطه نحو تحقيق غايات خاصة أكثر منها

غايات اجتماعيه . وقد نجد لدى الطفل استهواء عكسياً أكثر منه قابلية واستهواء لآراء الآخرين ... كما أنه لا يقبل أن يتدخل أحد فى عمله أو بينه و بين طفل آخر بل يقاوم هذا التدخل ولذا فلعب الأطفال يغلب عليه المنافسة .

ولو انتقلنا إلى دراسة جماعات الأطفال الذين يبلغون من العمر سنتين نجد أنه حينما يلتقى الطفل بالأطفال الآخرين — بمدارس الحضانة مثلا — فإنه لا يظهر إلا ميلا بسيطاً ولكنه يقف من بعد يتأمل الأطفال الآخرين و يحملق فيهم تماماً كما يفعل نحو الأشياء المادية التى تحيط به . ويكون على استعداد للعب مع الكبار أكثر منه مع الصغار ، وبالتدريج يبدأ فى اللعب بالأدوات بمفرده و ينظر إلى الآخرين بين الفينة والفينة . . . وما هى إلا أيام قليلة حتى يستجيب لطفل آخر ويحادثه و يبتسم و يضحك استجابة للطفل الآخر .. وأخيراً يبدأ الضحك بنفسه — و إذا بالطفل بعد أن يبتعد إذا ما حاول طفل أن يتخذ منه صاحباً نجده يبتسم و يمد يده إلى الطفل الآخر ليسيرا يداً فى يد .

والطفل فى بدء اتصاله بالجماعة سلبى بمعنى أنه يعتمد على غيره فى حماية نفسه وحماية لعبه وأدواته ، فإذا ما اعتدى عليه طفل آخر فإنه يبكى و يصرخ مستعيناً فى ذلك بالكبار . وقد يبدأ الطفل سلوكه الإيجابى نحو الجماعة بأن يضرب طفلا آخر و ينتظر ليرى ماذا يحدث . فكأنه يقوم بتجارب ليتعرف البيئة والمجتمع الذى يحيطه ويقف على ما يجب عليه أن يفعله وما يجب عليه أن لا يفعله فهو يحاول أن يضبط سلوكه حسب قوانين السلطة المحيطة به .

وعلى العموم فإنه ليس من السهل أن نحدد سلوك الأطفال نحو الجماعة فى هذه المرحلة إذ أن سلوكهم يتوقف على تجاربهم الاجتماعية السابقة فى المنزل . فقد يصدر نفس هذا السلوك من الأطفال الجدد — فى مدرسة الحضانة — الذين فى سن الثالثة والنصف أو الرابعة إذا كانوا لم يسبق لهم اللعب مع جماعات من الأطفال فى منازلهم من قبل .

وقد يتصرف الطفل إزاء طفل آخر بأن يتلمسه فى رفق ولين أو يدفعه على الأرض

أو يقذفه برجله ولكن سرعان ما يعرف أن السلوك الجاف غير مرغوب فيه فيحاول أن يحقق حاجاته بأساليب مقبولة أكثر من المجتمع . وكلما ارتقى ميل الطفل نحو الجماعة حاول أن يكتسب رضاهم وتقديرهم فنجده يبذل جهده فى مساعدة طفل آخر أو يحاول أن يجعله يشعر بالأمان وعدم الخوف إذا بقى منفرداً ، بل يحاول أن يدخل السرور إلى قلب الآخرين . والأطفال الذين هم فى سن الثالثة والرابعة يجدون لذة فى ملاحظة سلوك الآخرين ليبينوا لهم أخطاءهم رغبة منهم فى إرضاء الكبار . كما أنهم يظهرون تقديرهم للأطفال الآخرين إذا ما قاموا بأعمال تسترعى استحسانهم وكثيراً ما نجد الأطفال فى سن الرابعة يحمون حقوق الآخرين أو يمنعون أحد الأطفال من أن يأخذ ممتلكات طفل آخر . وأطفال هذا السن يلعبون غالبا فى جماعات أكثر مما يفعل الصغار ومن النادر أن يلعبوا منفردين .

وهناك عقبة كأداء تحول دون تنظيم علاقات الطفل بالجماعة وهى أن التغير الانفعالى فى السنوات الأولى من حياته سريع جداً ومدى انتباهه قصير ومتذبذب فالطفل الذى فى المرحلة من سنتين إلى خمس سنوات وإن تحمس للتعاون فى القيام بالعمل المشترك لا يلبث بداعى ضعف مقدرته على تركيز الانتباه أن يلتفت إلى شىء آخر لأن انتباهه غالباً ما يكون قسرياً . فبدون التأثير الخارجى المستمر على الطفل قد ينسى الطفل نفسه ولا يحافظ على غرض الجماعة وغايتها ويقضى أغلب وقته فى القيام بدور المتفرج أو أن يسير وراء غاية أخرى قد تتعارض مع غايات الجماعة . ويأخذ ثبات انتباه الأطفال فى الازدياد فى سن الرابعة والخامسة وهذا الثبات هو الذى يمنح الاشتراك الفعلى فى حياة الجماعة قيمته العملية المطلوبة .

وفى جماعات الأطفال يكون لكل فرد مكانة خاصة وموقف خاص . ولعل رفقاء الطفل هم الذين يستطيعون تقدير أهميته لا من وجهة قدراته الخاصة فحسب بل أيضاً من جهة أهميته العملية للجماعة ككل .

ويبدو هذا التقدير الاجتماعى لأفراد الجماعة بوضوح فى المرحلة التالية ابتداء من سن السادسة فصاعداً فمن المشاهد أنه فى كل فصل مدرسى أو فرقة لعب حيث تعود

الأطفال أن يلعبوا و يعملوا معاً ينشأ بالتدريج نظام للطبقات الاجتماعية يقبله الجميع وهذا النظام يظهر مركز كل طفل بين أقرانه ومدى قدرته على مساعدة الجميع .

و إذا انتقلنا إلى دراسة المرحلة التالية نجد أن جوزيف لى Joseph Lee يطلق عليها إسم The Big Injun Age وقدوصفت هذه المرحلة فى كتاب Norsworthy & Whitley بأنها مرحلة عصابات الأطفال .

وفى السنوات الأولى من هذه المرحلة التى تبدأ من سن السابعة أو الثامنة نجد أن عصابات الأطفال غير منظمة وغير مقصودة فالأطفال يجتمعون أثناء لعبهم فى المدارس أو الشوارع والأزقة ويكون عدد الجماعة حول الستة أو أكثر .

ويقسم ثراشر Thrasher عصابات الطفولة بحسب تكوينها الاجتماعى إلى مهوشه ومتماسكة وسرية وعرفية و إجرامية .

ا — فالنوع المهوش هو الطبيعى والغالب فى عصابات الأطفال وهذا النوع بسيط جداً فى نشاطه كما وأن إخلاص أفراده إلى بعضهم ليس بالقوى أو المستمر ويربطها التقليد وحب الظهور والمنافسة .

ب — أما النوع المتماسك فهو أرقى من النوع السابق ويربط أفراده غالباً الميل إلى المخاطرة . ويتصف أفراد العصابات المتماسكة بالأمانة لبعضهم البعض ويقتسم أفرادها المال والمخاطر . . . الخ .

حـ — والنوع السرى يقلد الأطفال فيه جمعيات البالغين حيث تقسم المهام على الأفراد ويصطلحون فيما بينهم على لغة سرية خاصة ويسيرون على قوانين يتواضعون عليها ... الخ وكلما اصطبغت الجماعة بصبغة الغموض الذى يستدعى الانفعال شعرت الجماعة بقوتها .

ء — والنوع العرفى لا يوجد إلا بين الأطفال الكبار من سن ١٦ — ١٨ ويطلق عليه هذا الإسم لأن المجتمع والعرف يقبله وتتكون هذه الجماعات رسمياً لغرض الألعاب الرياضية أو السياسة ... الخ .

هـ — أما النوع الإجرامى فيتكون من شبان لم يتكونوا تكويناً اجتماعياً صالحاً وانحدروا فى تيارات الرذيلة والإجرام .

أما من حيث سيكولوجية العصبة فإن الجمعيات المتحدة فى السن والجنس سواء أكانت مفككة أم مترابطة فإنها مهمة وضرورية للأطفال فى المرحلة بين سن الطفولة التى يعتمد فيها الطفل على والديه و بين الاستعداد للاستقلال والتزاوج وتكوين عائلات . فعن طريق هذه العصابات يتعلم الأطفال الاستقلال ويفهمون الديمقراطية فهماً عملياً ، كما يتقيدون بمستويات معينة تحدد سلوكهم كالعدل والملكية والمهارة الجسمية والمثل العليا فى الكرم والاقتصاد والشجاعة والشرف والأمانة . و بذلك تتقوم الشخصيات ولو فى شكل بدائى إذ أن الولد المشاكس أو اللئيم أو المنافق أو الجبان . . . الخ سرعان ما يجد نفسه غير مرغوب فيه ومطروداً من العصبة وهكذا تضطره العصبة إلى أن يتعلم كيف يضبط نفسه وكيف يلائم بين حاجاته وحاجات المجتمع .

ووجود العصابات إنما يحتم وجود مواقف مثيرة سواء أكانت على صورة مباريات ومخاطر مشروعة أم كانت مشاكسة للناس ومخاطر غير مشروعة . وتعتمد هذه المواقف المثيرة على الفرص التى تسمح بها البيئة والدرجة التى وصلت إليها الجماعة من الرقى الاجتماعى وترابطها مع الجمعيات الأخرى كما تتوقف أيضاً على الرغبات الوقتية لأعضاء الجماعة وقد يلجأ أفراد العصابات فى بعض الأحيان لإشباع خيالهم إلى التمثيل أو إجراء مباريات رياضية منظمة لكرة القدم كما أنهم يعملون على أن يكون لهم مكان معين يعتبرونه خاصاً بالجماعة حتى ولو كان هذا المكان ركناً فى شارع أو حارة كما أنهم ينتخبون اسماً للعصبة مما يقوى شعورهم بأنفسهم ويكون هذا الاسم غالباً مشتقاً من البيئة أو ممثلا لقوة أو سلطة كبيرة لها شهرتها كعصابة اليد السوداء أو قلب الأسد أو الزنبقة القرمزية . كما قد يتخذ أعضاء العصابة رمزاً أو شارة تمثلهم و يعتزون بها .

أما عن البنات فإنهن لا يندمجن فى الحياة الاجتماعية بدرجة الأولاد وسواء

أكان ذلك يرجع إلى التكوين الفسيولوجى للبنت أو إلى التقاليد الاجتماعية التى تقيد الفتاة وتمنعها عن الخروج كثيراً فإن النشاط الاجتماعى للفتاة أقل بكثير جداً منه فى حالة الصبية وكذلك من الصعب خلق روح الجماعة حتى فى الجمعيات المنظمة التى تكونها البنات فالبنت تميل إلى الاستقلال عن الجماعة كما تشهد بذلك دراسات Margaret Mead ويبدو استقلال البنت واضحاً فى ميلها إلى الأعمال الانفرادية كالرسم والحياكة . وحتى فى لعبهن نط الحبل أو « الحجلة » فإنهن لاينخرطن فى شكل فرق منظمة بل فى شكل ألعاب فردية وبينما ينغمر الأولاد فى حياة الجماعات أو العصابات تميل البنات إلى أن يكن أفرادا كل واحدة مستقلة بنفسها وهن لا يقبلن النقد ويستحيل عليهن أن يعملن تحت قيادة من يكرهن حتى ولو كان ذلك لصالح الجماعة . . . كل هذه العوامل تمنع من تكون العصبة المتماسكة وتكون سبباً فى فشل النوادى أو الجمعيات التى تقوم فى سن البلوغ عند البنات .

من كل ما تقدم يتبين أن تطور رقى الجماعة كثير الشبه بتطور الفرد. فكما أن الفرد فى صغره يحاول أن يثبت ذاته بأن يفرض نفسه على الآخرين عن طريق التعدى والهجوم فى أغلب الأحيان ، كذلك نجد أن الجماعة فى نشأتها تبدأ بالنضال والمنازعات ضد جماعات الأطفال الأخرى لإثبات ذاتها ولكن هذه المرحلة بدون شك بدائية ينبغى أن تتطور إلى مرحلة التعاون كما نرى عند فرق الكشافة فبالرغم من أن كل قسم من الأقسام ينافس الأقسام الأخرى ويحاول التفوق عليها إلا أنه يتعاون مع الأقسام الأخرى فى تحقيق الغرض العام لجماعات الكشافة . وهذا التعاون فى سبيل تحقيق الغرض المجرد العام هو دليل على النضج الاجتماعى للجماعة فمن الممكن الحكم على درجة نضوج الجماعة من مدى عزلتها عن الجماعات الأخرى أو تعاونها معها .

Résumé.

MAHER KAMEL : Les sociétés d'enfants.

Etude de la conduite sociale de l'enfant depuis ses premières ébauches au cours de la première année jusqu'à l'âge prépubère où les enfants aiment à s'organiser en bandes.